" اعتباطية العلامة اللغوية فكرة عربية قبل دي سوسير "

Arbitrary linguistic sign the idea of an Arab before de Saussure

عطاوي الطيب

. دكتوراه في اللسانيات العامة

جامعة : أبي بكر بلقايد . تلمسان

أستاذ محاضر (ب) بالمركز الجامعي النعامة (الجزائر)

البريد الالكتروني : tayebgouray@gmail.com

الهاتف : 0668627192

. الملخص :

يحاول هذا البحث أن يسلِّط الضوء على قضية مهمة من بين قضايا كثيرة شغلت الدرس اللساني الحديث ، قضايا ومسائل كانت محل جدال بين علماء العصر الحديث والمعاصر ؛ أهمها قضية العلاقة بين "اللفظ والمعنى" أو ما يسمى "الدال والمدلول" ، فانقسموا بذلك إلى فريقين .

فريقٌ يقول بأنها من إبداع العالم اللغوي السويسري "فرديناند دي سوسير" ، وفريق ثانٍ يرى بأنها فكرة ليست وليدة اليوم ؛ بل سبق دي سوسير إليها علماءٌ عرب ، تكلموا بشيءٍ مستفيضٍ فيها ؛ بل أبدعوا في مناقشتها والجدال في حقيقتها ، وقالوا بأنها (أيْ : العلاقة) غير معللة وغير ضرورية .

. الكلمات المفتاحية : علامة ؛ لفظ ؛ اعتباطية ؛ دال ؛ مدلول ؛ لغة .

_ Abstract

This article attempts to shed light on an important issue among the many issues that concern lingual lessons talk , issues and issues have been the subject of controversy between modern and contemporary scholars of the time, the most important Of the relationship between "word and meaning" , or what is called "the signifier and the signified" and separated into two parts .

Team says the Swiss linguistic creativity to the world "Ferdinand de Saussure" team a second sees that the idea is not the result of today , it is already from Saussure to Arab scientists, spoke with something good to The interior; But excelled in the debate and controversy , in fact , they said they (ex : relationship) is motivated and unnecessary .

Keywords : Sign _ word _ arbitrary _ Significant _ Meant _ language .

. تقديم :

السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو : ألم يكن للعرب نصيبٌ في الكثير من المفاهيم والمصطلحات حينما كانوا يقودون العالم نحو الحضارة والعلوم بشتى صنوفها ؟ وهل ما تعيشه حضارة اليوم هو نتيجة أبحاث علمية غربية خالصة هبَّت عليها دون سابق إنذار ؟ وهل ثمَّة صلة بين اللغويات الحديثة والتراث العربي القديم ؟ أم أن هذه الدراسات والأبحاث هي نتيجة تكامل حضاري ، ودراسات مسبقة اعتمد عليها علماؤهم وأعادوا هيكلتها وأضافوا لها مما اكتسبوه فأخرجوها لنا في ثوبٍ جديدٍ فانبهرنا بها وأخذت بشغاف قلوبنا فآمنا أنه لا علم يسمو فوق علمهم ولا دراسات حية تعلو دراساتهم ؟

ومن بين الدراسات الحديثة ذات العلاقة بهذا البحث : " الدال والمدلول بين العلاقة الاعتباطية والممارسة غير الواعية " لكريم شلال الخفاجي . و" علم اللغة بين ابن جني ودي سوسير " لانتصار الزهراني . و" تراث ابن جني اللغوي والدرس اللساني الحديث " لبلمليانى

بن عمر. و" الفكر اللغوي عند دي سوسير " لحسن الإدريسي . و" ملامح فكرة العلامة اللغوية في التراث اللغوي الإسلامي " لهدى صلاح رشيد .

ومن المعلوم أن اللغة هي الوعاء الذي تصب فيه الأمم أفكارها وتعبِّر بها عن حاجياتها وتنبئ عن شعورها ؛ وذاك ما يؤكِّده عبد السلام المسدي بقوله : « فالعرب بحكم مميزات حضارتهم وبحكم اندراج نصهم الديني في صلب هذه المميزات قد دُعُوا إلى تفكُّر اللغة في نظامها وقُدسيتها ومراتب إعجازها فأفضى بهم النظر لا إلى درس شمولي كوني للغة فحسب ؛ بل قادهم النظر أيضاً إلى الكشف عن كثير من أسرار الظاهرة اللسانية مما لم تهتدِ إليه البشرية إلا مؤخراً بفضل ازدهار علوم اللسان منذ مطلع القرن العشرين » [1] .

وقد ظلت اللغة محل نقاش وجدال بين العلماء طوال عصور خلت إلى غاية العصر الذي نعيشه ، إلا أن ذلك لم يخرج عن أربع نظريات تمحورت جميعها حول نشأتها ، فمنهم من يقول أنها من وضع الأنسان ، ومنهم من يرى بأنها إلهام من الله ، وذهب آخرون إلى القول بأنها مستوحاة من الطبيعة ، فيما اتجه آخرون إلى أنها نابعة من غريزة .

ومهما يكن من أمر نشأتها فإن اللغة في عمومها عبارة عن أصوات تتتابع فيما بينها لتشكل ألفاظاً تترابط هي الأخرى مع بعضها البعض بواسطة أدوات (حروف) لتشكل جملا .

إذن الصوت هو الوحدة الأم في اللغة ، وفي ذلك يقول ابن جني (ت 392 هـ) عنها : « أصوات يعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم » [2] .

كما أن هذه الأصوات تؤدي دوراً كبيراً في بنية اللفظ الذي تدور حوله الدراسات الألسنية ، ومن المعلوم أن للفظ الواحد دال ومدلول ؛ الدال هو الأصوات التي يحتويها ، والمدلول هو الصورة الذهنية التي توحي عليه في الخارج .

لذلك جاء هذا البحث ليلقي الضوء على أهم الدراسات العربية التي ناقشت فكرة "اعتباطية العلامة اللغوية" أو "الدليل اللغوي" ومقارنتها بتلك التي تكلم فيها دي سوسير ؛ إذ « الدال واللام أصل يدل على إبانة الشيء بأمارة تتعلمها ، والدليل الأمارة في الشيء » [3] .

وهي كذلك (أيْ : العلامة) شيءٌ يُنصبُ في الفلوات تهتدي به الضالة [4] وتكون بمثابة الدليل الذي ينير لصاحبه الطريق .

1 . العلامة اللغوية عند سوسير واعتباطيتها :

من المتعارف عليه أن الدراسات الألسنية بدأت تظهر بوجه جديد مع مجيء "دي سوسير" أب اللسانيات الحديثة كما يُنعت . والمتتبع لكتابه (دروس في الألسنية العامة) يجده قد أفاض في شرحه للكلمة ؛ غير أنه كان يطلق عليها مصطلح "العلامة اللسانية" التي توحِّد بين مفهوم (concept) وصورة سمعية (image acoustique) يقول : « إن العلامة توجد بين مفهوم وصورة سمعية ، ولا بين اسم وشيء ، ومما تجدر الإشارة إليه ها هنا هو أن الصورة السمعية ليست الأصوات المادية بخصائصها الفيزيائية ، وإنما هي البصمة النفسية للصوت ، فالصورة السمعية هي هنا الدال ، والتصور المدلول » [5] .

فالعلامة (طير) مثلا في قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿ وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ (يوسف ، 36) مكوَّنة من اجتماع الأصوات (ط . ي . ر) وارتباطه بصورة نفسية معينة ، وليس بالشيء طير ، الذي يمكن أن يكون كبيراً أو صغيراً ، أليفاً أو جارحاً ، يُحلِّق أو لا يُحَلِّق ، ولو ارتبط الاسم بالشيء لأصبح لدينا عدد هائل من الرموز التي تشير إلى كلمة (طير) حسب الألفة والتحليق [6] .

وعليه فالعلامة في نظره كيان نفسي ذو وجهين [7] دال ومدلول ، وانطلاقاً من ذلك فهو يشبِّه الارتباط الكائن بين الدال والمدلول بسطحيْ الورقة ؛ يقول : « ويمكننا كذلك أن نشبِّه اللغة بورقة يمثِّل الفكر وجهها والصوت قفاها ، فلا نستطيع أن نقطع الوجه بدون أن نقطع في الوقت نفسه القفا ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اللغة ، فلا نستطيع عزل الصوت عن الفكر ولا عزل الفكر عن الصوت » [8] .

والعلاقة الجامعة بين الدال ومدلوله اعتباطية Arbitraire (غير مبررة) ؛ يقول : « إن العلامة اللسانية هي اعتباطية » [9] ويعرِّف هذه العلاقة بأنها خطية (تأتي في تتابع زمني منتظم) ؛ فكلمة (طير) السابقة تأتي متتابعة زمنياً * مُبْتَدَأَةٌ بصوت الطاء (ط) تتبعها الفتحة ، ثم صوت الياء الساكنة (ي) ، ثم صوت الراء (ر) تتبعها الحركة الإعرابية ، وبذلك

فإن هذا المفهوم (طير) لا تربطه أية علاقة داخلية بتتابع الأصوات المكوِّنة له ، إذْ يمكن أن تمثله مجموعة أخرى من الأصوات ، ودليل ذلك الفرق الواضح بين اللغات في هذه التسمية ؛ ففي العربية نقول (طير) وفي الفرنسية نقول (oiseau) وفي الانجليزية (bird) وفي الإسبانية (pájaro) وهكذا دواليك .

لكن في العُرف العام عند الناس هذه الألفاظ هي أسماء ملتصقة بالمسمى في واقعهم المعاش ، يقول جورج مونان : « تظهر الاعتباطية في أن دالا معيناً في الواقع ، ومن ثمة فإن العلامة اللسانية هي تقسيم الواقع عن طريق التواضع لا غير ، فهي بمعنى الاتفاق والاصطلاح عكس المفهوم العفوي لدى المتكلم الذي يرى العلامة اللسانية كأنها اسم للواقع » [(10)] .

كما استخدم دي سوسير من جانب آخر كلمة (رمز) لتعيين العلامة اللسانية ، والتي سمَّاها الدال ، إضافة إلى أنه أشار إلى طبيعة العلاقة في الرمز والتي تختلف عن العلاقة في العلامة اللسانية ؛ يقول : « إن للرمز صفة ليست هي بالشكل عام اعتباطية أبداً ، وهذا الرمز ليس بفارغٍ أيضاً ؛ إذ إن هناك بعضاً من ملامح الرابط الطبيعي بين الدال والمدلول ، ولا يمكن تبديل الميزان ، وهو رمز العدالة بشيءٍ آخر كالعربة مثلًا » [(11)] ومن خلال ذلك فهو يستعمل مفهوم (علامة) أو (إشارة) .

وقد لاحظ علماء اللغة أن سوسير كان متردداً أثناء بحثه في قضية الوحدة اللسانية ، حيث استبعد كلمة (رمز) ، وتبنَّى كلمة (علامة) لإدراكه جيِّداً أن الرمز ليس فارغاً ؛ إنما هو يشير إلى بقايا تعليلية تجعل من إحالة الدال على المدلول إحالة محكومة بمبدأ التعليل ، في حين أن اللسان في جوهره ظاهرة اعتباطية .

غير أن هذه الاعتباطية ** بين الدال ومدلوله التي رآها دي سوسير لا توجد في العلامات اللسانية كلها ؛ بل هناك علامات تكون العلاقة بين دوالها ومدلولاتها ليست اعتباطية ؛ بل معللة ضرورية ومنطقية ، كالعلامات المحاكية للطبيعة Onomatopées وهو ما ذهب إليه الباحث Emil Benveniste (1902 ـ 1976 م) : « ليس الرباط اعتباطياً بين الدال والمدلول ، وإنما هو ضروري ، فمفهوم "ثور" هو إجباري مماثل في ضميري للمجموعة الصوتية (ث . و . ر) وكيف لا ، فالاثنان رسخا في فكري ، والاثنان اتسعا ذكرهما في كل حالة ، بحيث يوجد

تكامل عميق بينهما ؛ حتى أن مفهوم "ثور" يمكن اعتباره كروح للصورة السمعية (ث . و . ر) » [12] .

ولا يستثني دي سوسير دور المجتمع في إنجاز المفاهيم اللغوية ؛ فاللغة نتاج اجتماعي . كما هو معلوم . وظاهرة نفسية ، وذلك لا يعني أن اللغة تخضع في تسييرها لحرية الأفراد ؛ بل لا بد من تفاهم وتعارف بين جماعة لغوية على تسمية أشياء تكون فيما بعد مستعملة بين أفراد ذاك المجتمع كله *** وفي ذلك يقول سوسير عن اللغة : « فلا ينبغي أن يُفهم منها أن الدال خاضع لمحض اختيار المتكلم ؛ إذ سنرى فيما يلي أنه ليس بوسع الفرد أن يُلحق أيّ تغيير بعلامة قد اتفقت عليها مجموعة لسانية ما . إنما نعني أن الدال أمرٌ غير مبرّر ؛ أي إنه اعتباطي بالنسبة إلى المدلول ، وليس له أي رابط طبيعي موجود في الواقع » [13] .

2 . اعتباطية العلامة اللغوية عند علماء العرب القدامى :

لا يخفى على أصحاب الحقل اللغوي بأن الكلام الذي نتكلَّمه ونتواصل به فيما بيننا لا يعدو أن يكون مجرد "لفظ ومعنى" ؛ هذا الأخير الذي ارتبط في أذهاننا حين كنا طلبة بما يسمى ثنائية (الدال والمدلول) **** التي نادى بها فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure (1857 . 1913 م) .

إذن ؛ قد ارتبطت هذه الثنائية بأذهاننا أنها من إبداع هذا الباحث السويسري دي سوسير ، لكننا لم ندرِ أثناءها أنَّ الكثير من علمائنا الأوائل على مختلف مشاربهم وتوجهاتهم قد خاضوا في هذه الثنائية خوضاً عميقاً كبيراً حين حديثهم عن العلامة ، كلٌّ على طريقته وتعبيره ؛ فهذا أبو هلال العسكري (ت 395 ه) يقول : « وعلامة الشيء ما يعرف به المعلم له ومن شاركه في معرفته دون كل واحد ؛ كالحجر تجعله علامة لدفين تدفنه فيكون دلالة لك دون غيرك ولا يمكن أن يستدل به عليه » [14] إلا أن علماء العرب القدامى لم يسمُّوا العلاقة القائمة بين الدال والمدلول بهذا المفهوم الحديث (الاعتباطية = Arbitraire) ودليل ذلك ما جاء في كتاب "المغني" للقاضي عبد الجبار (ت 415 ه) إذْ يقول : « إنَّ الاسم إنما يصير اسماً للمسمَّى بالقصد ، ولولا ذلك لم يكن بأنْ يكون اسماً له أولى من غيره ، وهذا معلوم من حال من يريد أن يسمِّيَ الشيء باسم ، لأنه إنما يجعله اسماً له بضرب من القصد ، يبيّن ذلك أن حقيقة الحروف لا تتعلق بالمسمَّى لشيء يرجع إليه كتعلُّق العلم

والقدرة بما يتعلقان به ، فلا بدّ من أمرٍ آخر يوجب تعلُّقه بالمسمَّى ، وليس هناك ما يوجب ذلك فيه سوى القصد والإرادة » [15] .

والشاهد هنا هو عبارة (يبيّن ذلك أن حقيقة الحروف لا تتعلق بالمسمَّى لشيء يرجع إليه) ؛ أيْ : إن الحروف مجتمعة ليس المقصود من تتابعها المسمى المعيَّن ، إذ يمكن لحروف أخرى أن تحل محلها وتؤدي المقصود من المسمى ، وهو ما أشار إليه دي سوسير حينما مثّل بلفظ (أخت) في قوله : « لا توجد علاقة ذاتية جوهرية مثلا بين فكرة الأخت في الفرنسية والحروف المكوِّنة لكلمة (Sœur) فنفس الفكرة يمكن أن يمثل أو يرمز إليها بحروف أخرى » [16] .

وفكرة الاعتباطية هذه تكلم فيه أرسطو من قبل ؛ يقول : « إنه لا يمكن أن يوجد ارتباط طبيعي بين الصوت في أيِّ اللغة والأشياء المدلول عليها » [17] والأمر نفسه تكلَّم فيه أبو نصر الفارابي (ت 339 هـ) حينما قال : « إنَّ الألفاظ المفردة الأولى (هي) باصطلاح وتواطؤ ، وأمَّا المشتق عن الأُوَلِ والأسماء المركَّبة عن الأول فليست باصطلاح ، وإنَّما ألزمت طبيعة الأمر المدلول عليه أن يُدَلَّ عليه باسم مركَّب أو باسم مشتق من الألفاظ المفردة الأُول » [18] .

كما يؤكد في موضعٍ آخر بأن الألفاظ : « ليست تُحاكي شيئاً من المعاني أصلاً ، ولا عرضاً من أعراضه » [19] .

وكذلك نجد ابن رشد (ت 595 هـ) يرى الرأي نفسه في قوله : « إن الألفاظ التي يُنطق بها هي دالة أولا على المعاني التي في النفس ، والحروف التي تُكتب دالة أولا على هذه الألفاظ . وكما أن الحروف المكتوبة ، أعني الخط ، ليس هو واحداً بعينه لجميع الأمم ، كذلك الألفاظ التي يعبَّر بها عن المعاني ليست هي واحدة بعينها عند جميع الأمم . ولذلك كانت دلالة هاتين بتواطؤٍ ، لا بالطبع . وأما المعاني التي في النفس فهي واحدة بعينها للجميع ، كما أن الموجودات التي في النفس أمثلة لها ودالة عليها هي واحدة وموجودة بالطبع للجميع » [20] .

فالشاهد هنا عبارة (كذلك الألفاظ التي يعبَّر بها عن المعاني ليست هي واحدة بعينها عند جميع الأمم) ؛ أيْ : لكل شعبٍ من الشعوب لفظٌ خاصٌ به للتعبير عن شيء ما مع أن الصورة الذهنية لذلك الشيء واحدة عند هاته الشعوب كلها ، وهو ما قصده بقوله : (وأما

المعاني التي في النفس فهي واحدة بعينها للجميع ، كما أن الموجودات التي في النفس أمثلة لها ودالة عليها هي واحدة وموجودة بالطبع للجميع) .

كما نجد فخر الدين الرازي (ت 606 ه) يتعمَّق في هذه الإشكالية بين الألفاظ ومعانيها من خلال موازنة المفردة منها بالمركَّبة ، حيث أقام المقارنة بينها على ازدواجية الوضع والعقل فخلُصَ إلى إثبات عقلانية الدلالة التركيبية انطلاقاً من اعتباطية الدلالة الإفرادية [21] حيث يقول : « والإشكال المذكور في المفرد غير حاصلٍ في المركَّب ؛ لأن إفادة الألفاظ المفردة لمعانيها إفادة وضعية ، أمَّا التركيبات فعقلية . فلا جرم عند سماع تلك المفردات يَعْتَبِرُ العقل تركيباتها ثم يتوصَّل بتلك التركيبات العقلية إلى العلم بتلك المركبات ، فظَهَرَ الفرقُ » [22] .

فقوله : (إفادة الألفاظ المفردة إفادة وضعية) دليل على اعتباطية اللفظ أثناء وضعه ؛ كونه لا يُراعى فيه الدلالة العقلية ، وهو ما وضَّحه الفيلسوف ابن سينا (ت 427 ه) بقوله : « وذلك أنَّ اللفظ بنفسه لا يدلُّ البتَّة ، ولولا ذلك لكان لكل لفظٍ حقٌّ من المعنى لا يُجاوزه ، بل إنَّما يدلُّ بإرادة اللافظ ، فكما أنَّ اللافظ يُطلقه دالاً على معنى ، كالعين على ينبوع الماء ، فيكون ذلك دلالته ، ثم يطلقه دالاً على معنى آخر ، كالعين على الدينار ، فيكون ذلك دلالته . كذلك إذا أخلاه في إطلاقه عن الدلالة بقي غير دالٍ » [23] .

ويقول في موضع آخر : « فالمعاني في النفوس واحدة ، ولا تختلف من قوم لآخر ، ولكن الوسائل والرموز مختلفة بين الأمم في لغاتها المتباينة الدَّالات ، مع أن المدلولات في العالم الخارجي وفي المجرَّدات المعروفة واحدة . وأما دالات ما في النفس على الأمور فدالات لا تختلف ، لا الدال ولا المدلول عليه ، كما في الدلالة بين اللفظ والأثر النفسي ، فإن المدلول عليه وإن كان غير مختلف فإن الدال مختلف » [24] فهو بذلك يُقرُّ بعشوائية العلامة وأن لا تطابقَ بين دوالها ومدلولاتها ؛ بل حتى إنه وظَّف مفهوم (الدال والمدلول) في هذا القول كما فعل دي سوسير حين حديثه عن ذلك .

أما السيوطي (ت 911 ه) يقول عن اللفظ أن لا علاقة له بالمعاني الموجوده في العالم الخارجي : « واستدلوا عليه . أيْ على وضع الألفاظ بإزاء الصور الذهنية . بأن اللفظ يتغيَّر بحسب تغيُّر الصورة في الذهن ، فإن من رأى شبحاً من بعيدٍ وظنه حجراً أطلق عليه لفظ

الحجر ، فإذا دنا منه وظنه شجراً أطلق عليه لفظ الشجر ، فإذا دنا وظنه فرساً أطلق عليه اسم الفرس ، فإذا تحقَّق أنه إنسان أطلق عليه لفظ الإنسان ، فبان بهذا أن إطلاق اللفظ دائرٌ مع المعاني الذهنية دون الخارجية ، فدلَّ على أنَّ الوضع للمعنى الذهني لا الخارجي » [25].

فقوله : (فبان بهذا أن إطلاق اللفظ دائرٌ مع المعاني الذهنية دون الخارجية ، فدلَّ على أنَّ الوضع للمعنى الذهني لا الخارجي) هو ما قصده دي سوسير سابقاً بقوله : (إنما نعني أن الدال أمر غير مبرّر ؛ أي إنه اعتباطي بالنسبة إلى المدلول ، وليس له أي رابط طبيعي موجود في الواقع) .

وعليه نلاحظ جل هذه الأقوال ركزت في تعريفها على عدم وجود علاقة رابطة بين اللفظ وما يدل عليه ؛ إذ المدلول هو صورة سمعية (Image Acoustique) ـ كما قال دي سوسير ـ لا تُنبِئُ عن مفهومها (Conçept) ولولا ذاك لما جاز لنا أن نجد للاسم الواحد عدة مسمَّيات بين اللغات ؛ كلفظ (رأس) في العربية يقابله (tête) في الفرنسية و(head) في الانجليزية و(baş) في التركية وغيرها من اللغات ، وهو ما يؤكِّده ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) منذ قرون خلت بقوله : « والكلام يتعلَّق بالمعاني ، والفوائد بالمواضعة ، لا لشيءٍ من أحواله وهو قبل المواضعة ، إذْ لا اختصاص له ، ولهذا جاز في الاسم الواحد أن تختلف مسمَّياته لاختلاف اللغات » [26] وكذلك يؤكِّده السيوطي في موضع آخر قائلًا : « لو أن اللفظ دلَّ بذاته على معناه لفهم كل واحدٍ منهم كل اللغات » [27].

إذن ؛ هذه العلاقة بين الألفاظ ومعانيها ـ كما رأينا في هذه التعريفات ـ غيرُ معلَّلةٍ ولا منطق يقيِّدها ، فهي من وضع فئةٍ من الناس اجتمعوا في مكانٍ ما وفي زمنٍ ما ؛ فاصطلحوا على تسمية الأشياء التي كانت تحيط بهم بأسماء هي من صُنعهم ووضْعِهم ، هذه الأسماء ليست ثابتة ؛ إذْ كانت جماعة أخرى ستسمِّيها بأسماء أخرى خاصَّةً من تأليفها هي بدورها ، يقول ابن جني (ت 392 هـ) : « ... وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً ؛ فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد منها سِمة ولفظاً ، إذا ذُكِر عُرِف به ما مُسمّاه ، ليمتاز من غيره ، وليُغنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخفّ وأسهل من تكلُّف إحضاره ، لبلوغ الغرض في إبانة حاله » [28].

وذاك ما نلمسه في قول عبد القاهر الجرجاني (ت 471 ه) أيضاً حين حديثه في شأن "نظْم الكلام" أو ما يُعرف اليوم في باب البلاغة والأسلوبية بـ "نظرية النظم": « نَظْمُ الحروفِ هو توالِيها في النطق فقط ، وليس نظمها بمقتضًى عن معنى ، ولا النَّاظمُ لها بمُقتفٍ في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرَّى في نظمه لها ما تحرَّاه ، فلو أنَّ واضع اللغة كان قد قال رَبَضَ مكان ضَرَبَ لَمَا كان في ذلك ما يُؤدِّي إلى فساد » [29] .

الشاهد هنا كذلك في عبارة (فلو أنَّ واضع اللغة كان قد قال رَبَضَ مكان ضَرَبَ لَمَا كان في ذلك ما يُؤدِّي إلى فساد) وهو دليل آخر على أن رسم الحروف لا علاقة له بالمعنى الذي يحيله ترتيبها بذاك الشيء ، وهي الاعتباطية نفسها التي قصدها دي سوسير.

وفي شرح الأسفراييني (ت 406 ه) لمفهوم العلامة اللغوية يؤكد من جهته هو الآخر على العلاقة الاعتباطية ***** التي تجمع الدال بمدلوله ؛ يقول : « إن الأسماء لا تدل على مدلولاتها لذاتها إذْ لا مناسبة بين الاسم والمسمى ، ولذلك يجوز اختلافها باختلاف الأمم ، ويجوز تغييرها ، والثوب يُسمَّى في لغة العرب باسم وفي لغة العجم باسم آخر ، ولو سُمِّيَ الثوب فرساً والفرس ثوباً ما كان ذلك مستحيلا » [30] .

كما نجد ابن سيده (ت 458 ه) في هذا الشأن يقول : « فعلمنا بذلك أن اللغة اضطرارية وإن كانت موضوعات ألفاظها اختيارية ، فإن الواضع الأول المسمِّي للأقلِّ جزءاً وللأكثر كلًّا وللَّون الذي يفرِّق شعاع البصر فيبثُّه وينشره بياضاً ، وللذي يقبصه فيضمُّه ويحصره سواداً ، لو قلب هذه التسمية فسمَّى الجزء كلًّا والكلّ جزءاً والبياض سواداً والسواد بياضاً لم يُخِلَّ بموضوع ولا أوحش أسماعنا من مسموعٍ » [31] .

فالشاهد إذن في هذه القول هو عبارة (لو قلب هذه التسمية فسمَّى الجزء كلًّا والكلّ جزءاً والبياض سواداً والسواد بياضاً لم يُخِلَّ بموضوع ولا أوحش أسماعنا من مسموعٍ) وهي عين الاعتباطية التي تكلم فيها دي سوسير.

أما الآمدي (ت) « فإننا نعلم أن الواضع في ابتداء الوضع لو وضع لفظ الوجود على العدم والعدم على الوجود ، واسم كل ضد على مقابله لما كان ممتنعاً ، كيف وقد وضع ذلك كما في اسم الجون والقرء ، ونحوه ، والاسم الواحد لا يكون مناسباً لطبيعة الشيء ولعدمه ،

وحيث خصص الواضع بعض الألفاظ ببعض المدلولات إنما كان ذلك نظراً إلى الإرادة المخصصة » [32] .

الشاهد قوله (فإننا نعلم أن الواضع في ابتداء الوضع لو وضع لفظ الوجود على العدم والعدم على الوجود ، واسم كل ضد على مقابله لما كان ممتنعاً) هو عين الاعتباطية التي قال بها الجرجاني وغيره قبل دي سوسير (فلو أنَّ واضع اللغة كان قد قال رَبَضَ مكان ضَرَبَ لَمَا كان في ذلك ما يُؤدِّي إلى فساد) .

وكذاك قال ابن جني قبلهم : « اعلم أن واضع اللغة لمَّا أراد صوغها ، وترتيب أحوالها ، هجم بفكره على جميعها ، ورأى بعين تصوُّره وجوه جملها وتفاصيلها ، وعلم أنه لا بد من رفض ما شنع تألفه منها ، نحو (هع) و(قج) و(كق) ، فنفاه عن نفسه ، ولم يمرره بشيء من لفظه ، وعلم أيضاً أن ما طال وأمل بكثرة حروفه لا يمكن فيه من التصرف ما أمكن في أعدل الأصول وأخفِّها ، وهو الثلاثي ... فلما كان الأمر كذلك ، واقتضت الصورة رفض البعض ، واستعمال البعض ، وكانت الأصول ومواد الكلم مُعرِضة لهم ، وعارضة أنفسها على تخيُّرهم ، جرت لذلك عندهم مجرى مالٍ ملقى بين يدي صاحبه ، وقد أجمع إنفاق بعضه دون بعضه ، فميّز رديئه وزائفه ، فنفاه البتَّة ، كما نفوا عنهم تركيب ما قبُح تأليفه ، ثم ضرب بيده إلى ما أطف له من عُرض جيِّده ، فتناوله للحاجة إليه ، وترك البعض ؛ لأنه لم يُرِد استيعاب جميع ما بين يديه منه ، لما قدمناه ذكره ، وهو يرى أنه لو أخذ ما ترك ، مكان أخذ ما أخذ ، لأغنى عن صاحبه ، ولأدَّى في الحاجة إليه تأديته ، ألا ترى أنهم لو استعملوا (لجع) مكان (نجع) لقام مقامه ، وأغنى مغناه » [33] .

فقوله : (ألا ترى أنهم لو استعملوا (لجع) مكان (نجع) لقام مقامه وأغنى مغناه) هي نفسها عبارة الجرجاني (فلو أنَّ واضع اللغة كان قد قال رَبَضَ مكان ضَرَبَ لَمَا كان في ذلك ما يُؤدِّي إلى فساد) .

إذن ؛ هاؤم أولاء تسعة من كبار اللغويين العرب تطرَّقوا في مسيرة بحوثهم اللغوية إلى معالجة هذا المفهوم ، أفلا يحقُّ لنا ولغيرنا الاعتراف بهذا المجهود وهذا السَّبقُ في آنٍ واحدٍ ؟ لِذا فإنَّ الحداثة للاسم وليست للمباحث [34] . كما قال د . السعيد شنوقة . والأسماء بطبيعتها تتغير عبر المراحل الزمنية لكل أمة ؛ أيْ : « إن لاعتباطية العلامة جذورها في اللغة

العربية ، ولا شكَّ في أنه يبيّن للدراس من هذا الجيل وغيره درجة الأهمية لهذا الغبار الذي يثيره بعض المبهورين جداً باللسانيات المعاصرة في جوانب معينة كثيرة على حساب تأصيلها البحثي المدقق عند العرب ، وكأنها فتح علمي لا صلة للعقل العربي في الاهتداء لآليته وأجهزته » [35] مما يستدعي إعادة النظر في الكثير من المفاهيم المعاصرة والمصطلحات الحديثة التي ظهرت في حقل اللسانيات العامة أو التطبيقية والبحث عن ما يقابلها في تراثنا الغزير.

. استنتاج :

إذن ؛ النتيجة التي يمكن الاطمئنان إليها هي أن العرب . وبدون مبالغة أو تحيُّز. قد كان لهم باعٌ كبير في العديد من المفاهيم اللغوية والمصطلحات اللسانية التي نجدها مبثوثة بين ثنايا ما وصل إلى أيدينا من مباحث ودراساتٍ ، ومن بينها فكرة "اعتباطية الدليل اللغوي" ؛ إذ قادهم تفكيرهم اللغوي إلى أن يكونوا السبَّاقين في الاهتمام العظيم بلغتهم ، فكانوا أداة اعتمدت عليها الدراسات التي جاءت بعدهم ؛ أنكر ذلك من أنكر واعترف به من اعترف .

. الهوامش والإحالات :

1 . عبد السلام المسدي ، **التفكير اللساني في الحضارة العربية** ، ط2 (تونس ، الدار العربية للكتاب ، 1986) ، ص 26 . وينظر أيضاً **مباحث تأسيسية في اللسانيات** للمؤلف نفسه ، ط1 (بيروت ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، 2010) ، ص 27 .

2 . أبو الفتح عثمان بن جني ، **الخصائص** ، تحقيق : عبد الحكيم بن محمد ، ج1 (المكتبة التوفيقية ، مصر ، د.ت) ، ص 44 .

3 . أبو الحسن أحمد بن زكريا بن فارس ، **مقاييس اللغة** ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ج2 (بيروت ، دار الفكر ، د.ت) ، ص 259 .

4 . أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، **لسان العرب** ، ج12 (بيروت ، دار صادر ، د.ت) ، ص 419 .

5 _ Ferdinand De Saussure , **Cours de Linguistique Générale** (Genéve, Arbre D'or , 2005), p 74 .

6 . أحمد حساني ، **مباحث في اللسانيات** (الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1994) ، ص 122 .

7 . يرى عبد الجليل مرتاض أن العلامة اللسانية كيان ذو أربعة أوجه ، تربط شيئاً باسم وصورة سمعية بتصوُّر ، وليس العكس .

8 . فردينان دي سوسير ، **دروس في الألسنية العامة** ، تعريب : صالح القرمادي وآخرون (بيروت ، الدار العربية للكتاب ، 1985) ، ص 174 .

9 _ De Saussure , p 75 .

* . يقول الجاحظ عن هذا التتابع : « إن هذا التقطيع الحرفي الذي يقوم عليه اللفظ لا يدرك ظهوره إلا من خلال صوت واحد يصير إذا تلاه صوت ثان صوتا ممتدا ، مع أن الحروف المتتالية كلما ظهر منها صوت انمحى الصوت الذي سبقه ، لكن سرعة الإلقاء تجعل الأصوات المتتالية كأنها مساق واحد من الأصوات المتصلة ، والحروف المنمحية يبقى صداها فقط قائماً في الكلمة أو الجملة ، لكن يتعذر أحياناً استحضار الصدى الملفوظ بكامله ، ولذلك كثيراً ما يطلب السامع من المتكلم إعادة ما قاله لترسيخ حروفه في الذاكرة » .

10 . جورج مونان ، **تاريخ علم اللغة من نشأتها حتى القرن العشرين** ، ترجمة : نجيب غزاوي (دمشق ، مؤسسة الوحدة ، د.ت) ، ص 106 .

11 . فردينان دي سوسير ، **دروس في الألسنية العامة** ، ترجمة : يوسف غازي وآخرون (الجزائر ، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، 1986) ، ص 90 . 91 .

** ـ يرى جاكبسن (1896 ـ 1982 م) أن اعتباطية العلامة اللسانية ليست لدي سوسير، بل تكلم عنها اليونانيون ولا سيما أفلاطون وديموقريطس ، ومن بعدهما الرواقيون .

12 ـ زبير دراقي ، **محاضرات في اللسانيات التاريخية والعامة** (الجزائر، ديوان المؤسسات الجامعية ، د.ت) ، ص 67 .

*** ـ الأصل في وضع الألفاظ أن تكون كل منها علامة صوتية دالة على "معقول" أو "متصوّر" يندرج فيه ما لا يتناهى من المحسوسات أو الأعيان ؛ ككلمة (رداء) التي يستوي فيها الجلباب والعباءة والمعطف والشملة والجبّة والسترة والقميص وغيرها « ولكي تكون الكلمة بهذه المثابة من المرونة ، ينبغي أن تكون التجربة الحسية التي استمدت منها قيمتها وكيانها بوصفها وحدة لغوية ، تجربة متكررة على عينات كثيرة فيها من التشابه ما يكفي لجمعها تحت رمز واحد ، ومع ذلك يظل الاختلاف في الجزئيات والتفاصيل قائماً وممكناً في الأفهام ، فهو الذي يضمن للكلمة مرونتها في الدلالة وصلاحيتها للإحاطة بقدر ما من المعرفة الإنسانية العامة . وبهذه الطريقة فحسب يصبح التفاهم ممكناً بين الناس بعضهم ببعض » (ينظر حسن ظاظا ، **اللسان واللغة : مدخل إلى معرفة اللغة** ، ط2 (دمشق ، دار القلم ، بيروت ، الدار الشامية ، 1990) ، ص 69 .

13 _ De Saussure , p 76 .

**** ـ يستبدل "ماريو باي" مفهوم (دال) بمفهوم (رمز) مبقياً على مفهوم (مدلول) كما ورد عند سوسير ؛ يقول : « إن سرَّ العملية الكلامية كلها يكمن في تلك الصلة القائمة في عقول اثنين بين الرمز والمدلول ، وما عدا ذلك ـ من العملية الكلامية ـ عضوي طبيعي ميكانيكي . أما كيف تمَّ في البداية عقد الارتباط بين الرمز ومدلوله ـ حتى في أبسط صوره حين تمَّ في عقل إنسان فرد ـ فإنه ما يزال لغزاً من الألغاز» (ينظر **أسس علم اللغة** ، ترجمة : أحمد مختار عمر ، ط8 (القاهرة ، عالم الكتب ، 1998) ، ص 42 .

14 ـ أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري ، الفروق في اللغة ، ط4 (بيروت ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، 1980) ، ص 62 .

15 ـ أبو الحسن القاضي عبد الجبار، **المغني في أبواب التوحيد والعدل** ، تحقيق : خضر محمد نبها ، ج5 (بيروت ، دار الكتب العلمية ، 2011) ، ص 160.

16 _ De Saussure , p 75 .

17 ـ دانيال تشاندلر ، **أسس السيميائية** ، ترجمة : طلال وهبة ، مراجعة : ميشال زكرياء ، المنظمة العربية للترجمة ، ط1 (بيروت ، مركز الوحدة العربية ، 2008) ، ص 59 .

18 ـ أبو نصر محمد بن محمد الفارابي ، **شرح الفارابي لكتاب أرسطو طاليس في العبارة** ، تقديم : ولهام كوتش وستانلي مارو (بيروت ، دار المشرق ، 1971) ، ص 57 .

19 ـ المصدر نفسه ، ص 51 .

20 ـ أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، **تلخيص كتاب أرسو طاليس في العبارة** ، تحقيق : محمد سليم سالم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مصر ، مطبعة دار الكتب ، 1978) ، ص 12 ـ 13 .

21 ـ عبد السلام المسدي ، **التفكير اللساني في الحضارة العربية** ، ص176 .

22 ـ أبو عبد الله فخر الدين محمد الرازي ، **مفاتيح الغيب** ، ج1 ، ط1 (بيروت ، دار الفكر ، 1981) ، ص 31 .

23 ـ أبو علي الحسين بن سينا ، **كتاب الشفاء** ، تحقيق :الأب قنواني وآخرون (القاهرة ، المطبعة الأميرية ، 1952) ، ص 25 .

24 ـ المصدر السابق ، ص 07 .

25 ـ عبد الرحمان بن أبي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي ، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها** ، تحقيق: محمد جاد المولى وآخرون ، ج1 (بيروت ، المكتبة العصرية ، د.ت) ، ص 42 .

26 . أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد سنان الخفاجي ، **سر الفصاحة** ، ط1 (بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1982) ، ص 42 .

27 . عبد الرحمان بن أبي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي ، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها** ، تعليق وضبط : محمد أحمد جاد المولى وآخرون ، ج1 ، ط3 (القاهرة ، دار التراث ، د.ت) ، ص 16 .

28 . ابن جني ، ص 54 .

29 . عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، **دلائل الاعجاز** ، ط1 (بيروت ، دار الكتاب العربي ، 2005) ، ص 50 .

***** ـ الاعتباطية تكون بين اللفظ الأصلي ومدلوله (معناه) ، أما المعنى الآخر (معنى المعنى) فلا أثر للاعتباطية ؛ إذ « إن إطلاق اللفظ على المعنى الأصلي ، أو ما يمكن أن يسمى بالوضع الأول هو عمل اعتباطي ، أما إطلاقه على معنى المعنى كإطلاق اللسان على اللغة ، أو العين على الجاسوس فهو عمل معلل ، والمقصود بالوضع عند الإطلاق هو الوضع الأول ، ولذا يقال إن وضع اللغة عمل اعتباطي ، ونظراً إلى أن العلاقة بين الدال والمدلول تزيد وثاقة بكثرة الاستعمال ، فإن المتكلمين يشعرون بقوة الاتصال بين الدال والمدلول في ألفظ اللغة بوجه عام ، ويحسّون بعلاقة طبيعية وعقلية خاصة بين الدال والمدلول في التعبيرات التي تشتمل على ما يُعرف بمعنى المعنى » (ينظر محمد محمد يونس علي ، **المعنى وظلال المعنى : أنظمة الدلالة في العربية** ، ط2 (بيروت ، دار المدار الإسلامي ، 2007) ، ص 49 . 50) .

30 . السيوطي ، ص 47 .

31 . أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده ، **المخصص** ، تقديم خليل إبراهيم جفال ، ج1 ، ط1 (بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، 1996) ، ص 33 .

32 . سيف الدين محمد بن علي الآمدي ، **الإحكام في أصول الأحكام** ، تحقيق : عبد الرازق عفيفي ، ج1 ، ط1 (بيروت ، المكتب الإسلامي ، 1981) ، ص 183 .

33 . ابن جني ، ص 70 . 71 .

34 . سعيد شنوقة ، **مدخل إلى المدارس اللسانية** ، ط1 (القاهرة ، المكتبة الأزهرية للتراث ، 2008) ، ص 76 .

35 . المرجع نفسه ، ص 60 .